أدب الأطفال والأدب المقارن

أ. د. عبد المجيد حنون
جامعة عنابة

المقدمة:

أدب الأطفال نشاط فكري مارسه ويمارسه جل الناس تقريبا في مختلف البيئات بشكل أو بآخر، فهو متداول ومعروف؛ غير أن المتمعن فيه أو الدارس يجد نفسه أمام تساؤلات عديدة ومتنوعة متى أراد الخوض في هذا الموضوع الذي مارسه الجميع، حيث عادة ما تطرح تساؤلات مثل: ما المقصود بأدب الأطفال؟ هل هو أدب يكتبه الأطفال؟ أهو أدب مكتوب للأطفال؟ وهل هو أدب مكتوب للأطفال؟ وهل هو أدب أو جزء من الأدب؟ وهل هناك فرق ما بين خصائص الأدب الفنية وبين خصائص أدب الأطفال الفنية؟ وهل هو أدب فني أو مجرد أدب تعليمي يهدف إلى تسهيل الحفظ والعملية التعليمية؟ وإذا كان الأمر كذلك هل تعد كل النصوص التعليمية أدب أطفال؟ وما هي علاقة أدب الأطفال بالدرس الأدبي عموما وبالأدب المقارن على وجه الخصوص؟ ...

إنها تساؤلات كثيرة، عادة ما تطرح على **أي** مهتم بأدب الأطفال، محورها الأساس التساؤل عن العلاقة القائمة ما بين الظاهرة الغنية وبين أدب الأطفال.

المنارة للاستشارات

وقبل أن نحاول توضيح موقع الأطفال والدرس الأدبي المقارن، نشير إلى أن أدب الأطفال لم يكن وحيدا أو فريدا في إثارة التساؤلات السابقة الذكر أو التي لم تذكر، حيث سبقه إلى ذلك الأدب برمته؛ فقد كان هو الآخر وما زال محل تساؤلات عن مفهومه، وطبيعته، وخصائصه، ووظيفته. طرحها القدماء من إغريق مثل أرسطو، وعرب مثل قدامة ابن جعفر وابن قتيبة وحازم القرطاجني؛ وطرحها المحدثون مثل المستشرق الإيطالي «كارلو نالينو NALLINO CARLO» في مستهل القرن العشرين، عندما ألقى دروسه في الجامعة الأهلية المصرية بالقاهرة على طلبة الأدب العربي، متتبعا تطور كلمة»أدب« عند العرب. ومثل الشكلانيين الروس الذين سعوا إلى التنظير للأدب من خلال أشكاله؛ ومثل الأمريكيين «ريني ويليك René Wellek» و«أوستين وارين .AWaren» في كتابهما الشهير «نظرية الأدب«، وصولا إلى «تودوروف» الذي خلص إلى أن مصطلح "أدب" لم يتبلور بالمفهوم المتعارف عليه حاليا إلا منذ القرن الثامن عشر في اللغات الأوروبية بطبيعة الحال؛ حيث لم يكن يعني الشيء نفسه عبر التاريخ من جهة، كما أنه لا يعني الشيء نفسه بدقة في اللغات من جهة أخرى، الأمر الذي جعل "تودوروف" يتساءل عن ماذا يدخل في حيز الأدب وماذا لا يدخل فيه، وبالتالي عن ماهية الأدب والصرف[1]؟

لقد تعددت مفاهيم الأدب بتعدد المنطلقات الفكرية أو الفنية أو الأيديولوجية من ناحية، وبتعدد الوظائف المنوطة بالنشاط الأدبي أو بالظاهرة الأدبية وتنوعها من ناحية أخرى.

وبغض النظر عن جنس الظاهرة الأدبية أو الوسيلة التي تتجلى بوساطتها وتنتقل، ندرك بشيء من إنعام الفكر **أن** الأدب فن مادته اللغة المتميزة عن

المنارة للاستشارات

اللغة

التداولية العادية. وطبيعته التخييل بوساطة اللغة، يتجسد وفق ممارسات نسقية يرسخها التداول. أما وظيفته فتحددها طبيعة العلاقات التي تربط طرفي العملية الأدبية، أي الأديب المنتج والمتلقي المستهلك، وبالتالي فالأدب مؤسسة لها هياكلها وأنظمتها الثقافية الخاصة التي تتغير وتتطور بتغير المجتمعات وتطورها، إلا أنها تقوم دوما بدور فعال وحاسم في تثبيت الذوق وترسيخه. وتفرض هذه المؤسسة أحكامها بفضل سلطات تتحكم في التقويم الجمالي عبر مستويات ثلاثة

1. مستوى القبول والاعتراف بالأثر أو النص في دائرة الأدب، أي الاعتراف به أدبا.
2. مستوى الفحص والتمحيص والإشادة و التنويه، لضمان الانتشار عن طريق الدراسة والنقد والمجازاة بمختلف أنواع المكافآت التي تطورت من مجرد ثناء إلى عطايا وهبات فجوائز تقديرية حالية.
3. مستوى المحافظة والتجديد، قصد التحكم في الإرث الأدبي عن طريق نشاط

المؤسسات التعليمية والموسوعات و كتب تاريخ الأدب التي تصنف وترتب وتحافظ على الأثر الأدبي عن طريق تواتره بين الأجيال من المتعلمين والدارسين والقراء الذين يرسخون وجوده في مختلف الأنساق والنظمة.

وهكذا تقوم المؤسسة بدور المحافظة على سمعة الأثر الأدبي ومؤلفه، فترعى الأدب وتحافظ على انتشاره ثم سيره سيرا حسنا[2]. فهل يندرج أدب الأطفال داخل مفهوم الأدب السالف الذكر؟ وهل حظي أو يحظى بموقع داخل المؤسسة الأدبية؟ وإذا كان الحال خلاف ذلك فلماذا؟

المنارة للاستشارات

تزخر المكتبات في بلادنا وفي مختلف أنحاء العالم بأعداد هائلة من المنشورات الموجهة إلى أطفال في مختلف أعمارهم، يعد البعض منها منشورات شبه مدرسية، ويعد البعض الآخر منها "أدب أطفال"، غير أننا لا نجد صدى لهذا الإنتاج الأدبي في الموسوعات الأدبية أو في كتب تواريخ الأدب القومية التي لا تؤرخ لهذا النشاط الأدبي بغض النظر عن انتماءاتها اللغوية؛ كما أن المؤسسة التعليمية الجامعية، وبصفة خاصة في البلاد العربية، لا تدرجه ضمن مقرراتها وبرامجها التدريسية في أقسام الآداب واللغات. ويبدو أن السبب في ذلك لا يعود إلى وقوع أدب الطفال خارج المؤسسة الأدبية أو على حداثة نشأته بقدر ما يعود إلى حداثة مفهوم الطفولة ذاتها والوعي بها، وإلى الوضع البشري المزري الذي عرفه الأطفال حتى عهد قريب. فالطفل كان – في مختلف المجتمعات والحضارات – ذلك العنصر الاجتماعي الضعيف الذي لا يعرف، ولا ينتج، والمعرض باستمرار إلى السبي أو البيع والشراء أو المرض أو الموت؛ وبالتالي فهو ذلك العنصر الذي لم يتحقق وجوده بعد في المؤسسة الاجتماعية لأنه مجرد مشروع فرد.

وانطلاقا من مكانته الاجتماعية، ومما يتلاءم مع قدراته العقلية واللغوية عدت النصوص الأدبية التي يقبل عليها الأطفال مثلهم، أي عدت أدبا "ضعيفا" أو "وضيعا" كما هو الشأن في الصين قديما، أو ادبا "هامشيا" أو "موازيا" (PARA LITTERATURE) للأدب الحق كما هو الشان حتى وقت قريب في المؤسسة الأدبية عبر مختلف أنحاء العالم[3]، شأنه في ذلك شأن بقية النشاطات أو الأجناس الأدبية التي تتكشف منها المؤسسة، رغم أنها لا تستطيع أن تنكر وجودها لأن البعض من أجناسها – مثل أدب الأطفال– يحظى واقعيا بوجود يفوق وجود أعرق الأجناس الأدبية "الراقية."

المنارة للاستشارات

ولما بدأت الطفولة تحظى بشيء من اهتمام المجتمعات الأوروبية على وجه الخصوص، بدأ أدب الأطفال بدوره يعرف اهتماما متزايدا على المستويين:

أ.الإقتصادي: نتيجة لانتشار التعليم وتزايد عدد الأطفال القراء، اهتم الناشرون كثيرا بنصوص أدبية طبعت ونشرت من أجل الأطفال منذ القرن الثامن عشر بدءا ببريطانيا، فالولايات الأمريكية المتحدة والصين وروسيا ...الخ، وتزايد اهتمام الناشر به عبر العالم مع تزايد مردود مقروئيته شيئا فشيئا.

ب. السياسة: حيث أصبح مثار اهتمام الكثيرين من الأنظمة السياسية و المؤسسات والهيئات والمنظمات الوطنية أو الإقليمية أو الدولية، لأغراض متنوعة ومختلفة[4]. وما دام الأمر كذلك، فإن التساؤل عن ماهية أدب الأطفال وعن نشاته، وعن صلته بالأدب المقارن يبقى مطروحا.

لا يختلف أدب الأطفال عن أدب الكبار أو الأدب الرفيع في شيء؛ فهو فن مادته اللغة، وطبيعته التخييل، يتجسد في أنساق وممارسات فنية منسوخة من الأجناس الأدبية المألوفة، وبالتالي فهو يندرج ضمن مفهوم الأدب عموما من حيث المادة والطبيعة والأنساق الفنية؛ غير أن «أدب الأطفال يتميز عن أدب الراشدين في مراعاته حاجات الطفل وقدراته، وخضوعه لفلسفة الكبار في تثقيف أطفالهم»[5]. الأمر الذي يجعل العملية الإبداعية لا تسير وفق البعد أو النظام نفسه الذي تتبعه في أدب الكبار، مما يجعل الكاتب لا يسعى إلى جذب المتلقي

إلى منظوره –كما هو الشان مع الكبار– وإنما يسعى إلى تبسيط منظوره مضمونا وشكلا لكي يتلاءم مع المتلقي – الطفل– ومع طبيعة الرسالة المحمولة في الأثر الأدبي. وعليه، فإن أدب الأطفال جزء من الظاهرة الأدبية عموما؛ إلا أنه يتميز بنوعية جمهوره وطبيعته، الأمر الذي يجعل الفرق بينه

المنارة للاستشارات

وبين أدب الكبار يقوم على خصوصية المتلقي أساسا، وعلى مراعاة أدب الأطفال واهتماماتهم، وقدراتهم العقلية واللغوية والذوقية، وعلى رغبة الكبار وفلسفتهم في تكوين أطفالهم وتثقيفهم؛ الأمر الذي يوضح أنه مستوى أدبي خاص بفئة معينة من القراء، مثل بقية المستويات الأدبية الخاصة التي قوامها مستوى لغوي معين، أو مستوى معين في المقروئية أو مستوى معين في مضمونه. وعلى هذا الأساس، فإن خصوصية أدب الأطفال النابعة من جمهوره تكمن أساسا في وظيفته، التي هي تربية وتثقيف وتكوين في نظر الكبار؛ وتسلية وترفيه في نظر الأطفال. وانطلاقا من هذه الازدواجية الوظيفية تتحدد خصائصه الفنية ومكانته ضمن المؤسسة التي لم تتبناه بعد تماما، ولا تستطيع أن تتكره كلية.

من الصعب أن نحدد تاريخا ثابتا لنشأة أدب الأطفال أو تخصيص أمة بعينها تكون سباقة في إنشائه؛ لأن الظواهر الفنية لا تظهر إلا نتيجة عوامل وإرهاصات، غير أن إنعام الفكر في نصوص أدب الأطفال القديمة منها بوجه خاص، يدل على أنها ذات بعد تعليمي، الأمر الذي يعزز نظرية المنشأ التعليمي، خاصة وأن أقدم النصوص شرقية ذات هدف تعليمي وضعها رجال الدين أو براهمة أو مربون لتعليم أبناء الملوك والأمراء الحكمة و السياسة في الممالك الهندية أو الصينية أو ممالك الشرق عموما، مثل كتاب " الأسفار الخمسة" أو " كليلة ودمنة"[6]...إلخ.

وزيادة عن الأصل التعليمي، ثمة رافد ثان رفد أدب الأطفال في نشأته، هو الرافد الترفيهي الذي يتمثل في نصوص حكائية شفوية، كان الأطفال يقبلون على سماعها من أفواه الكبار، في مجالس السمر، أو في مناسبات خاصة، ويستمتعون بطابعها العجائبي، الذي ينقل المستمع إلى عالم الخوارق والفطرة

المنارة للاستشارات

البشرية المتحرر من كل القيود والأنظمة التي كبلت المجتمعات بها حياة الإنسان اليومية، وبأساليبها السردية المتميزة.

وانطلاقا من هذين العاملين اللذين كانا أساس نشأة أدب الأطفال هنا أو هناك، واستمراره عبر الزمن وتطوره، قام الناشرون، منذ القرن الثامن عشر، بمعالجة نصوص أدبية من عيون الأدب العالمي – لتوفرها على العاملين السالفي الذكر على واحد منهما على الأقل – ونشرها في منشورات موجهة إلى جمهور القراء من الأطفال الذين تبنوا الكثير منها بعدما أصبحت في متناولهم لغة وأسلوبا وحجما...الخ، تلبي حاجتهم الترفيهية، وتلبي رغبة أوليائهم التعليمية، وساعد ذلك انتماء تلك النصوص أصلا إلى" الأدب الرفيع " في نظر الأولياء والمربين.

كما استلهم أدب الأطفال التراث الأدبي الشعبي، أو المستوى الشعبي من الأدب، ولا غرابة في ذلك البتة، فالتراث الشعبي الشفوي هو أصدق تعبير فني عن طفولة الجماعة البشرية وبدائيتها، لا تحده قيود فكرية أو سياسية أو فنية، ولا تبعده عن الفطرة المفاهيم والأنساق المعرفية أو اللغوية، المر الذي جعل هذا التراث يتقاطع في خصائص مضمونية بالدرجة الأولى، وفنية بالدرجة الثانية مع أدب الأطفال الذي يعد تعبيرا أو غذاء فنيا للطفل الذي يعد بدوره معادلا موضوعيا لطفولة الجماعة البشرية[7].

كان أدب الأطفال في نشأته، أدب كبار موجها إلى الصغار لتحقيق أهداف سطرها الكبار، وفق قدرات الصغار العقلية ورغباتهم الترفيهية؛ ثم أصبح سلعة تجارية رائجة في يد الناشرين والتجار، وسلاحا طويل المدى والمفعول في يد المتحكمين في المصائر، فهب الدارسون من مختلف التخصصات الإنسانية – كالتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب... الخ–

المنارة للاستشارات

إلى دراسة الطفل في مختلف مكوناته ومظاهره ونشاطاته، بما في ذلك الأدب الموجه إلى الطفل الذي تخصصت فيه دور نشر ومكتبات ومجلات، وأسست له الهياكل والمجالس وأصبح مؤسسة لا تقل أهمية عن المؤسسة الأدبية التقليدية، سواء على مستوى المردود النفعي المادي، أو على مستوى الأثر الفكري والفني في القارئ، أي في طفل اليوم ورجل الغد.

يلاحظ الدارس أن النصيب الأوفر من الدراسات المتعلقة بأدب الأطفال والصبيان كانت في مراحل البحث الأولى ذات طابع تربوي نفسي أنجزها مربون وعلماء نفس نظرا إلى طبيعة الهدف الأساس من أدب الأطفال ببعديه التعليمي والترفيهي، وإلى خصوصية الجمهور المتلقي ثم تبع المربين وعلماء النفس في دراسة أدب الأطفال والاهتمام به، علماء الاجتماع والإعلام والاتصال كل حسب زاوية اهتمامه العلمي أو انتمائه الأيديولوجي.

أما المؤسسة الأدبية، بما فيها نقاد الأدب ومؤرخوه وأساتذة، فكانت لا تعبأ بأدب الأطفال، ولا تحتفل به باعتباره أدبا "وضيعا"، أو "هامشيا" "أو" موازيا " لا قيمة أدبية له في نظرهم مقارنة بنصوص الأدب الراقي، أي أدب الكبار، الذي يلبي حاجياتهم الذوقية، ويتماشى وفق المعايير الجمالية السائدة أو المتعارف عليها. ويبدو أن الأزمة الحادة التي عرفها العالم القديم في مفهوم "الواقع" واهتزاز كل القيم والقناعات جعلت المفكرين والفنانين يتصورون الخلاص في "الخيال" وفي "العجائبية" بصفة خاصة. وانطلاقا من هذه المكانة التي احتلتها العجائبية، أدرك الباحثون بوجه عام والمقارنون على وجه الخصوص أهمية أدب الأطفال وقيمته من حيث محتوياته الموضوعاتية التي تنزع دوما منزعا إنسانيا لا يعير كبير اهتمام إلى قناعات الكبار التي تسببت في ويلات عظيمة؛ ثم من حيث خصائصه الفنية التي تنزع نحو البساطة في

المنارة للاستشارات

الذوق والخيال الممتع؛ أي أن أدب الأطفال خزان العجائبية، والغذاء الفني الأول لكل إنسان في فطرته الأولى، بعيدا عن أي تعصب أو تطرف سياسي أو قومي أو عقدي[8]. ويبدو أن صلة أدب الأطفال الأولى بالأدب المقارن ترجع إلى مدرسة الأدب المقارن الفرنسية، حيث كان أحد أقطابها التاريخيين – أقصد بول هازار -PAUL HAZARD سباقا في إدراك أهمية أدب الأطفال بالنسبة إلى الأدب المقارن، حيث كتب مقالا بعنوان "كيف يقرأ الأطفال؟ " ونشره في " مجلة العالمين" الفرنسية يوم 15 ديسمبر من سنة 1927م[9]. وبعد سنوات من التفكير والبحث نشر سنة 1932م كتابه الشهير: " الكتب والأطفال والرجال"[10] الذي كان طيلة سنوات عديدة عمدة الباحثين والدارسين في أدب الأطفال ومرجعهم الرئيس، الأمر الذي يجعلنا نقول بأن العشرية الثالثة من القرن العشرين كانت فترة بداية اهتمام المؤسسة الأدبية بأدب الأطفال، وعلى رأسها المقارنون، الذين بحثوا دوره في تكوين العقل البشري وذوقه، وإثرائه بالأفكار والمفاهيم والصور: " والملاحظ أن أدب الأطفال أصبح، مع بول هازار، الدليل الساطع على حيوية أمة معينة؛ حيث يمثل عرض خيالها الفاخر أو نشره إعدادا لمستقبل مثمر"[11]. لقد اهتم هازار وغيره من المقارنين بأدب الأطفال لارتباطه بخيال الأمم مضمونا وشكلا. وفضلا عن طابعه الخيالي والعجائبي، الذي يعبر عن الفطرة البشرية بعيدا عن أي قناعات أو حدود، اهتم المقارنون بأدب الأطفال لأنه يزخر بتصورات الشعوب وأوهامها عن بعضها البعض، أي عن الآخر، وكان ذلك من أخصب ميادين الأدب المقارن، منذ الثلاثينيات من القرن الماضي، عند المدرسة الفرنسية ومن تبعها على وجه الخصوص، حيث فتش المقارنون في جل النصوص الأدبية، وحتى غير الأدبية كالصحافية مثلا، عن تصورات الشعوب وصورها عن بعضها البعض. كما اهتموا به لأن

المنارة للاستشارات

نصوصا سردية وشعرية منه تعد عناصر أساسية في عملية التناص وتوالد النصوص سواء داخل حيز لغوي واحد أو عبر مستويات لغوية داخل الحيز الواحد أو عبر حدود لغوية؛ كما أن الكثير من عيون أدب الكبار، مثل كليلة ودمنة، وحي بن يقظان، وألف ليلة وليلة، وروبنسون كروزوي، وموبيديك، والبؤساء...إلخ، انحرفت نحو عالم الأطفال الأدبي لتوفرها على خاصية من خصائص أدب الأطفال التعليمية أو الترفيهية؛ كما **أن** أدباء مثل (جول فيرن J.Verne) ، أو أجناسا أدبية مثل: (الحكاية أو الشريط المصور) لهم حضور وشهرة عند الأطفال والكبار في الوقت نفسه، مما دفع المقارنين إلى **أن** يطرحوا، انطلاقا من أدب الأطفال وأجناسه، قضية حدود الأدب ومستوياته المختلفة[12].

وبما أن الدرس الأدبي المقارن يسعى أساسا، وباستمرار، إلى استكشاف المكونات الأدبية وغير الأدبية التي تسهم في بناء الأثر الأدبي، عبر حدوده المختلفة، ودراستها من حيث طبيعتها الأولى، ثم انتقالها من منظورها الأصلي وتوظيفها من جديد في منظور فني آخر ضمن بناء أدبي جديد، وما طرأ عليها من تغيرات خلال عملية الانتقال ثم التوظيف، وأسباب ذلك وانعكاساته في الأثر الأدبى الجديد، فإن: ((الفصل بين ما يعود إلى قراءات الطفولة وما يعود إلى غيرها، أو إنكار متعة القراءة التي ترجع إلى ذكريات الطفولة أمر يصعب تصوره))[13]، الأمر الذي يجعل أدب الأطفال المحطة الأولى في عملية البحث عن التأثير والتأثر، أو التناص، أو استكشاف عناصر الأدب التكوينية المضمونية أو الفنية الظاهرة أو المستترة، ويفسر اهتمام المقارنين به فهو بداية التكوين كما تقول الأسطورة.

المنارة للاستشارات

وفي الستينيات من القرن العشرين عرف أدب الأطفال قفزة أخرى مع الفيلسوف الفرنسي، ذي الأصول الإيطالية، مارك سوريانMarc Soriano الذي اهتم بظاهرة أدب الأطفال ودرسه، فكانت حصيلة دراساته كتابه الشهير المرشد في أدب الأطفال الذي نشره سنة 1975م[14] عند الناشر نفسه الذي نشر كتاب "بول هازار" السالف الذكر. وكان كتاب "سوريانو" مرشدا للباحثين حقا، أثرى به طريقة البحث في أدب الأطفال وضبطها وفق منطلقات واضحة مفهوميا، ودقيقة إجرائيا، الأمر الذي جعل الكثير من الباحثين الشبان، من مختلف التخصصات، يقبلون على دراسة هذا الميدان الأدبي كل حسب تخصصه ومنطلقاته، وكان المقارنون في مقدمتهم[15]، كان همهم التنقيب عن العناصر المضمونية أو الفنية التي غذت هذا النص أو ذلك، وعن التفاعلات المختلفة سواء داخل عالم أدب الأطفال نفسه مثل قصص الأخوين "غريم Grim " وقصص " بيرولت Perroult " وقصص "لافونتين Lafontaine" الخ، وتفاعلها عبر الزمان أو المكان في مختلف أنحاء أوروبا على وجه الخصوص؛ أو بينه وبين عالم أدب الكبار مثل "سندريلا" في القصة أو الرواية أو الشعر وغيرها من نماذج أدب الأطفال التي تسللت بمحمولاتها إلى أدب الكبار وشحنته بإشعاعاتها الأسطورية أو الفكرية أو الفنية.

وفي بداية الثمانينيات، أصبح أدب الأطفال يحظى – زيادة عن عناية الناشرين ووسائل الإعلام والساسة...الخ – بعناية المؤسسة الجامعية تعليما وبحثا، حيث أدخل العديد من المقررات التعليمية – على مستوى التدرج أو ما بعد التدرج – في العديد من الجامعات الغربية عموما، والفرنسية على وجه الخصوص، فظهر باحثون تخصصوا في دراسته ، فرادى وجماعات، وأصبحوا معالم بحثية بارزة تنظم الحلقات الدراسية والندوات، وتقود فرق البحث؛ وتشرف

المنارة للاستشارات

على الرسائل الجامعية فيه، مثل "مارك سوريانو" في جامعة "بوردو" ثم "ليموج" ثم "باريس" في الأخير، و"دونيز إسكاربييت Denise Escarpit" في جامعة "بوردو"[16]، وغيرهما كثير في مختلف الجامعات الفرنسية.

لقد تظافرت عوامل عديدة ومتنوعة في تطور أدب الأطفال خلال النصف الثاني من القرن العشرين، كالمنافسة التجارية الوحشية التي لا يهمها إلا المزيد من الربح باستعمال مختلف الوسائل الفنية لبعث رغبة الصغار والكبار على اقتناء المنشورات، والفضول الثقافي المتزايد الذي غذاه ويغذيه تطور وسائل الإعلام بوتيرة مذهلة والانفتاح على الآخرين طوعا أو قسرا، حتى صار أدب الأطفال ظاهرة ثقافية ذات بعد عالمي، ولذا» أصبح مثار اهتمام المقارنين بالدرجة الأولى، حيث سيكون له دور في تحديد أشكال التفكير المستقبلية«[17]، أي أنه اكتسب، ببعده العالمي، أهمية إضافية عند المقارنين زيادة عن أهميته الأولى التي اكتسبها بدوره في إثراء الوجدان البشري الأول وبتفاعلاته المختلفة.

وعليه فقد كان أدب الأطفال منهلا خصبا للأدباء في صغرهم أثرى عقولهم وغذى خيالهم مثل غيرهم من الأطفال المستهلكين له. وكان معينا لهم في كبرهم، وظفوا عناصر منه في إبداعاتهم الأدبية بوعي أحيانا، وبغير وعي في الكثير من الأحيان، فكان المادة الأولى لإبداعاتهم، ولذا كان مثار اهتمام المقارنين، وسيبقى لأنه أصبح ظاهرة عالمية تتجاوز كل الحدود، كما سيبقى ما دامت الرغبة في فهم الأدب وتذوقه باقية.

لم يكن الأطفال العرب، بما في ذلك الجزائريون، حالة شاذة بالنسبة إلى استهلاك أدب الأطفال وتذوقه لأغراض ترفيهية تثقيفية كما هو الشأن مع القصص الشعبي المروي مشافهة . أو المقروء في كتب ونشرات مثل: علاء

المنارة للاستشارات

الدين والمصباح السحري، وقصة السندباد البحري وقصة الشاطر حسن وقصة بقرة اليتامى...الخ، أو لأغراض تعليمية تهذيبية في منشورات مدرسية أو أدبية صرفة، كما هو الشأن مع "كليلة ودمنة و "حي بن يقظان" و"الشوقيات الصغيرة" وقصص كامل الكيلاني أو جعفر عبد الرزاق في سوريا أو جميلة زنير في الجزائر...الخ. ولم يقتصر أدب الأطفال عند العرب على ما أنتجه الخيال العربي، وإنما طعموه بالكثير من النصوص ونشروها مثل "خرافات لافونتين"

و"أليس في بلاد العجائب" و"سندريللا" و"روبنسون كريزوي"، ومغامرات عوليس، ورحلات جوليفر[18]...الخ؛ ويشاهد المرء – في مختلف البلدان العربية– منشورات كثيرة في أسواق الكتاب موجهة إلى الأطفال فضلا عن بعض الجمعيات أو المؤسسات التي كانت تعنى بالطفولة وبآدابها هنا أوهناك، الأمر الذي يؤكد وجود ظاهرة أدب الأطفال عند العرب ودورها في الحياة الأدبية العربية، وأهميتها الاقتصادية والسياسية والتثقيفية؛ غير أن البرامج التعليمية الجامعية أو قوائم الأبحاث الجامعية تكاد تخلو تماما من أية إشارة إلى أدب الأطفال، مما يعني غيابه في المؤسسة الجامعية العربية على وجه العموم، عدا بعض مبادرات فردية لا تندرج في مشروع متكامل أو متطور مستقبلي مدروس. وحتى الحلقات الدراسية والندوات التي أقيمت هنا وهناك، من تنظيم جهات أو أطراف لا صلة لها بالمؤسسة الجامعية، الأمر الذي جعل تلك النشاطات تكتسي طابعا ثقافيا مهرجانيا، شأن الكثير من التظاهرات الثقافية التي تعج بها الحياة الثقافية العربية.

وفي الجزائر بالذات، سعت منذ سنوات نوايا جزائرية علمية طيبة، إلى تخليص مقررات ليسانس اللغة العربية وآدابها من طابعها التاريخي النظري

المنارة للاستشارات

الذي يشحن ذهن المتعلم بمعلومات لا تفيده الآن في شيء، وإنما تجعله يعيش غربة فكرية ووجدانية في الزمان وفي المكان، واستبدالها بمقررات ذات طابع وظائفي تركز على وظائفية اللغة العربية وآدابها، وتزود التعلم بقدرات لغوية وأدبية تؤهله إلى أن يتأقلم مع الواقع والاندماج فيه؛ فأدرجت أدب الأطفال ضمن المقررات بالفعل منذ سنوات قليلة لحاجة الجامعيين إليه في مختلف وظائف التعليم أو في نشاطاتهم الثقافية أو في البرامج السمعية البصرية...الخ، وبدأت الظاهرة تثير معرفيا الطلبة الذين أقبلوا، بشغف، على دراسة أدب الأطفال ضمن المقرر الدراسي، وإعداد منكرات التخرج فيه؛ كما أثارت الباحثين

الذين أنجزوا البعض منهم رسائل جامعية في أدب الأطفال، وأنجز البعض الآخر مقالات ودراسات ومؤلفات فيه[19]؛ وبذلك نستطيع القول أن أقسام اللغة العربية، في الجامعة الجزائرية، أعطت خلال سنوات قليلة جدا دفعا قويا لدراسة أدب الأطفال؛ غير أن البعض من أساتذة اللغة العربية وآدابها – وعلى رأسهم المسؤولون منهم – رجعوا بمقررات اللغة العربية آدابها، منذ سنتين حوالي نصف قرن إلى الوراء، وجردوها من كل ملامح التجديد و الانفتاح على المعرفة الحديثة، فحذفوا، ضمن ما حذفوا من المقررات، أدب الأطفال لأنهم لم يفهموا دوره في إثراء الخيال والوجدان وأهميته في تكوين الذوق الأدبي، ولم يدركوا بعد أن "الضب" لم تعد يربطه أي رباط بالوجدان العربي، وأن "الأثافي السبع" لم يعد لها دور في حياة الطفل العربي، وأن "المرجل" استبدل بموقد غازي أو كهربائي، وقد يصبح عما قريب نوويا أو شمسيا، وبالتالي أصبح أطفالنا في واد ونحن في واد كما يقال؛ ورجعت مقررات اللغة العربية وآدابها في الجامعة الجزائرية إلى زمن ولى وانقضى، فكيف سيكون أدب الطفل

المنارة للاستشارات

العربي؟ وكيف ستكون علاقته بالأدب المقارن؟ لاشك أن الإجابة عن هذين السؤالين وما يشبههما سيكون مرتبطا بموقع الطفل والطفولة في المجتمع العربي، وبطبيعة المؤسسة الجامعية العربية ودورها.

وخلاصة القول، فإن أدب الأطفال أصبح في مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك الجزائر، ظاهرة أدبية ثقافية فنية تتخطى الحدود اللغوية والسياسية، تغذي خيال الطفل ووجدانه، وتشحنه بالرموز والساطير والقيم والصور الجمالية المستمدة من التراث الإنساني عموما؛ ومن ثم نقول إن أدب الأطفال جزء لا يتجزأ من الأدب وقد يصبح منافسا له.

ونظرا إلى تعدد وظائفه وخصائصه وطبيعته التي تستجيب لمتطلبات الطبيعة الإنسانية في مرحلتها البريئة، أصبح محل اهتمام الباحثين من مختلف التخصصات، وأصبح المقارنون يقودون الدرس الأدبي فيه، نظرا إلى طابعه الإنساني ونزوعه نحو الخيال والعجائبية المتحررة من الأنظمة والأعراف والهياكل التي سجن فيها الكبار العقل البشري وذوقه، وبالتالي سجنوا فيها الأدب المخصص لهم، في حين ما زال أدب الأطفال، إلى حد ما، في منجاة من ذلك، لأن ما لا يحق للكبار يحق للصغار، ولذا كان أدب الأطفال وما زال من أخصب ميادين الأدب المقارن الدراسية،

وآمل أن تستعيد أقسام اللغة العربية في الجامعة الجزائرية رشدها وتعيد أدب الأطفال إلى مقرراتها، إسهاما منها في بناء مستقبل البلاد وتوجيهه الوجهة العلمية الملائمة...

.

المنارة للاستشارات

الهوامش

[1]. Tzevetan) Todorov) :

la notion de littérature, éd seuil, paris 1987 p.p 9-10

[2] . Boyer(A.M.)

La paralittérature. P.U.F.(que s'ais je ?). paris 1992. p.p21

[3] . Boyer(A.M): Idem, p.23-27.

[4]. إسكاربيت (دونيز):

أدب الأطفال والفتيان في العالم، ترجمة نادر ذكري، دار الحوار، سورية

المنارة للاستشارات

1985؛ ص: 05-19.

[5]. الهيتي (د.هادي نعمان):

ثقافة الأطفال (شلة عالم المعرفة، عدد 123) الكويت، 1988، ص155.

[6] . الهيتي (د.هادي نعمان)، المرجع نفسه، ص 159.

[7]. Jan (Isabelle):

La littérature enfantine, les éditions ouvrières .paris 1984. p.p.13-14.

[8]. (S/D de brunel(p) et chevrel (y):

Précis de littérature comparée P.U.F. Paris 1989 P.P.300- 3001

[9]. Précis de littérature comparée. P.299.

[10] . Hazard Paul :

Les livres, les enfants et les hommes, flammarion, paris 1932.

[11] . Précis de littérature comparée. P. 302.

[12] . Niers (Isabelle):

Cultures d'enfance, ou la recherche en littérature générale et comparée en france. S.F.L.G.C. Paris 1983, P.183.

[13] . Niers (Isabelle):

Idem. P. 196.

[14]. Marc) Sorino):

Guide de la littérature pour la jeunesse, flammarion, Paris, 1975.

[15] . Précis de la littérature comparée .p. 301.

[16] . Niers (Isabelle):o.p. cit.p.184.

[17] . Précis de littérature.p.300.

[18]. الهيتي (د. هادي نعمان):

ثقافة الطفل، ص. 231-233

[19]. مثل:

أ- دراسة عبد الدايم الشوافي، حوليات جامعة الجزائر، عدد، 03، سنة 1988، 1989، 105- 121.

المنارة للاستشارات

ب- وكتاب محمد مرتاض عن أدب الأطفال في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

جـ- ورسالة مسعودة لعريط، بعنوان >> قصص الأطفال في الجزائر، التي نالت بها درجة الماجستير في الأدب، من جامعة عنابة سنة 1997م.

د- ورسالة خروفة براك" شعر الأطفال والفتيان في الجزائر" التي نالت بها درجة الماجستير في الأدب من جامعة عنابة سنة 2000 م.

هـ- دراسة محمد شنوفي القيم في قصص الأطفال في الجزائر مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد الثامن، الجزائر 2003

المنارة للاستشارات